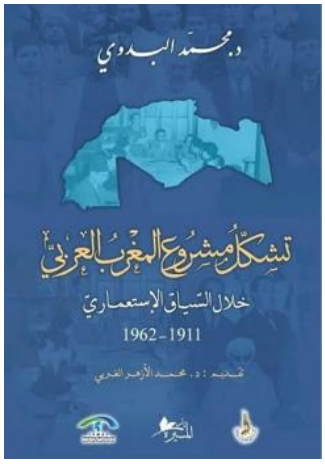


Muḥammad al-Badawī -.Tašakkul mašrū' al-Maġrib al-'arabī ḫilāla al-siyāq al-isti'mārī 1911-1962 (Tūnis: Dār al-Masīra li-l-našr wa-l-tawzī', 2024), 427p.

محمد البدوي. – تشكل مشروع المغرب العربي خلال السياق الاستعماري 1911–1962 (تونس: دار المسيرة للنشر والتوزيع، 2024)، الطبعة الأولى، 427ص.

عن دار المسيرة بتونس، صدرت الطبعة الأولى من كتاب بعنوان: **تشكل مشروع المغرب العربي خلال السياق الاستعماري 1911–1962**، لمؤلفه محمد البدوي عن منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، وهو في الأصل أطروحة جامعية في التاريخ المعاصر، نوقشت في كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس في العام 2016.

يقع الكتاب، وهو من الحجم المتوسط، في 427 صفحة، اتخذ هيئة بناء هندسي يوافق إلى حدّ كبير إشكالية الكتاب وموضوعه، والمقاربة التاريخية التي تؤطِّره، فجاء في ثلاثة أبواب متكامِلة، انتظَم كلُّ واحد منها في ثلاثة فصول. وإلى جانب المقدمة والخاتمة، أرفق المؤلف دراسته بملاحق بلغ مجموعها ستة عشرا، وهي عيّنات من العدة الوثائقية، التي اعتمدها في دراسته، فضلا عن مَسْرد للوثائق الأرشيفية، رتَّبه بعناية تكشف عن مجهود كبير، بُذل على مستوى الجرد والتصنيف، راعى خصوصيات الوثائق والمؤسسات المحفوظة فيها، من قبيل وزارة الخارجية الفرنسية (Quai d'Orsay) المصلحة التاريخية لجيش البر (Shat)، ووثائق الأرشيف الوطني التونسي، ووثائق المركز الوطني للتوثيق، ولم يُسقط من الاعتبار التوسّل بشهادات شفهية سجّلها سلفاً المعهدُ العالي لتاريخ تونس المعاصر، علاوة على الاستئناس بالدراسات التي أُنجزت في الموضوع بأوروبا والبلدان العربية.

وتنطلق الدراسة من التنبيه إلى أنّ تشكل مشروع المغرب العربي ليس وليد اللحظة الاستعمارية، كما قد يتوهّم قارئ العنوان، بقدر ما أن هذه اللحظة، حسب المؤلِّف، وفَّرتْ إطارا أو قاعدة مادية وثقافية، حفَّزتْ النخب المغاربية على تحْيين فكرة الوحدة المغاربية الموغِلة

في القدم. وتبدو الدراسة أيضا مسكونة بقضية مُضمرة، رافقت مختلف مباحثها دون أن ترقى إلى مستوى الإفصاح، تمثَّلت في الحفر عن أسباب تعثُّر مشروع الوحدة منذ حصول البلدان المغاربية على استقلالها إلى اليوم؟ وهو ما جعل الكيان المغاربي عاجزا بشكل جليٍّ عن الفعل والتأثير والتَّأثر أحيانا، في ظل واقع جيوسياسي لم يعد يعترف إلا بالتكتُّلات الإقليمية.

لم يكن اختيار النفَس الزمني المؤطِّر للبحث والممتدِّ من العام 1911 إلى 1962 اعتباطا، بقدر ما أنه استحضر محطّتين بارزتين من التاريخ المعاصر للبلدان المغاربية، تمثّلت الأولى في سقوط إيالة طرابلس تحت نير الاستعمار الإيطالي (1911)، واعتُبرت الثانية مُجسَّدة في انعتاق آخر الأقطار المغاربية (الجزائر) حدّا خَليقا بالنظر والاعتماد. وهي حقبة حافلة بالأحداث المرجعية في مخاض تشكل مشروع المغرب العربي الكبير، وجدَ بعضُها أصْله في الكفاح المغاربي المشترَك، واتَّصل البعضُ الآخر بالتحوُّلات الدولية الكبرى التي طبعت العالم في سنوات ما بين الحربين وما بعدها، وألقتْ بظلالها على الأقطار المغاربية. ومن هنا صاغ محمد البدوي إشكالَيته المركزية، وجعل منها قضية القضايا التي اعتَنت الدراسة بتفكيك تشابكاتها، ويتلخص مضمونها في ما يلي: كيف يمكن تفسير تضامن التونسيين وتكاملهم مع الحركات الوطنية بالمغرب الكبير ما بين 1911 و1962؟ هل الأمر متصِّل بشعور طبيعي، أمْلتْه الروابط التاريخية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية للتونسيين مع إخوانهم في المغارب؟ أم أنه سلوك ارتبطَ قصدا بمصلحة قُطرية ضيقة ضمن سياق الانعتاق من الهيمنة الاستعمارية؟

وجعلت الدراسة من مقتضيات النظَرِ في الإشكالية المتقدِّمة اعتمادَ تخطيط كرونولوجي انتظم في ثلاثة مراحل أساس، امتدَّت الأولى من العام 1911 إلى 1939، في حين كانت الثانية من 1939إلى 1950، أمّا الثالثة فمن 1950 إلى 1962. ولعل من أوجه إجرائية هذا التحقيب المعتمَد فاعليته في استيعاب القضايا الفرعية الكبرى التي تمفْصل عبرَها البحث، وفق تطور زمني رام في الجوهر تعقُّب تبلور المشروع المغاربي. وبذلك جعل الباب الأول من الحضور الاستعماري في المرحلة الأولى حافزا حقيقا لتثْبيت الروابط المغاربية، عبّر عنه بجلاء تفاعلُ التونسيين على الخصوص مع أحداث كبرى طبعت المجال المغاربي، من قبيل احتلال إيالة طرابلس، وقيام ما سمي بجمهورية الريف بالمغرب الأقصى، وأثَّر كل ذلك على تحول هؤلاء

نحو العمل المغاربي في الخارج، وذلک من خلال الأنشطة التي قام بها الطلبة التونسيون في المهجر. ولم تُسْقِط الدراسة من الاعتبار أهمية النظر في تداعيات الحرب الكونية الثانية (1939-1945) على المشروع الوحدوي المغاربي، لاسيما وأن الإقليم استحال معطًى جيوسياسيا للأطراف المتنازعة. وهو ما انصب عليه الاهتمام في الباب الثاني من خلال اعتبار الصدام الكوني المتقدِّم عامل توحيد للمغاربيين في الداخل والخارج، تجلت مظاهره في توحيد القاعدة البشرية لبلدان المغارب، وبروز مؤسَّسات حملتْ على عاتقها مسؤولية تأمين رهان الوحدة المغاربية وتدْويل قضايا تحرُّر أقطار المغارب جميعها، وإن كان هذا الفعل غير خال من التجاذُبات والصراعات، التي تعدُّ من صميم الخلافات الإيديولوجية العالمية الممهدة للحرب الباردة. وأفضى نظر محمد البدوي في الشروط التاريخية لميلاد المغرب العربي (1951-1962) إلى القول إن الأمر يتعلق بكيان ولد ميتا في الأصل والابتداء، وهي مفارقة حرص الباب الثالث على إبرازها من خلال نماذج مختارة، كشفتْ عن تصدُّع الموقف المغاربي حيال بعض القضايا، من جملتها المسألة الليبية، وعدم قدرة الوطنيين التونسيين على الوفاء بالتزاماتهم المغاربية، ومصير القضية الجزائرية بُعيد ظفر المغرب وتونس باستقلالهما.

وعلى خلاف ما يوحي به عنوان الكتاب، فإنَّ نظر صاحبِه جاء مسكونا بنوازع راهنة رامت أن تجعل من الاستقصاء التاريخي الموثَّق أداة لفهم الأصول التاريخية المعاصرة لحالة ''اللاَّمغارب'' التي تحياها شعوب المنطقة راهناً، في إشارة إلى ما ترتّب عن حالة الانسِداد السياسي بالإقليم من انفلات لمُمْكنات تنمية الإنسان والمجال. ولهذه الغاية نبّهت الدراسة إلى أن بوادر الإخفاق الأولى في بلورة مشروع الوحدة المغاربية ليست بالضرورة خارجية المنشأ كما يتوهَّم البعض، في محاولةٍ لربطها جدليا بالوجود الاستعماري، ضمن لازمة تفكک البنى الاقتصادية والاجتماعية جراء الحضور الأجنبي، وهو ما ترتّب عليه إسقاط لكثير من مداخل الفهم التي يقتضيها السبر التاريخي، ولاسيما البحث في الظرفيات الخاصة المُنبثَّة بين ثنايا الوثائق. ومن أمثلة ذلک واقعة الزلاج في 29 شتنبر 1911، والتي أراد أن يجعل منها البعض عنوانا لرد فعل سياسي تونسي حيال احتلال طرابلس، بيد أنها في الجوهر كانت تعبيرا عن أزمة اقتصادية خانقة، اتصلت بتراكم سنوات عجاف أثَّرت على المحاصيل الزراعية، وأفرزت قلقا

اجتماعيا، جعل البلاد التونسية خلفية للصراع الإيطالي الطرابلسي. ويُفهم في هذا السياق التحولات الديموغرافية الكبرى التي شهدتها تونس جراء تدفق المهاجرين الطرابلسيين وتوزعهم على الخصوص في الجنوب. وبالمثل كان لحرب الريف صدى كبير في البلاد التونسية سيما لدى النخب السياسية والعالمة، كما هو الأمر بالنسبة للحزب الحر الدستوري التونسي، الذي ترددت مواقفه بين الحذر والمساندة، والحزب الشيوعي التونسي المساند لثورة الريف، حيث اعتبرها تجسيدا للأطماع الإمبريالية الرأسمالية في المغرب. ومن خلال الوثائق، رسم الرأي العام التونسي، صورة مميزة للمجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي، بدا فيها في صورة البطل المحارب القاهر للغرب. ومن أوجه المفارقة في هذا التفاعل التونسي مع القضايا التحررية المبكرة بالأقطار المغاربية، أنها لم تُستغل على الوجه الأمثل من قِبل النخب السياسية، سيما من أجل تحريض الأهالي التونسيين ضد الوجود الفرنسي، على الرغم من أن شروط ذلك كانت قائمة، خاصة ما يتعلّق بحالة الضيق الاقتصادي والاجتماعي التي كانت تهيمن على واقع التونسيين. وفي الخارج واكبت النخب التونسية، رغم بعدها عن البلاد، المتغيرات السياسية والمؤثرات الثقافية والفكرية الجديدة المميزة للساحة السياسية التونسية. من أجل ذلك كانت هذه النخب فاعلا مهما في العمل المغاربي بالخارج، والرامي إلى تشكيل جبهة مغاربية موحدة في مواجهة الاستعمار. وتجلى ذلك على الخصوص في الدور الطلائعي للطلبة التونسيين داخل جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين.

لقد توفّقت الدراسة، وهي تسائل تداعيات الحرب الكونية الثانية على المشروع المغاربي، في إثارة بعض الجزئيات المتصِلة بدفع الأقطار المغاربية إلى المشاركة في هذا الصدام الكوني. ومن جملة ذلك المنظومة القانونية المؤطِّرة لهذا الفعل الاستغلالي الفرنسي، وتركيبة الجيوش المغاربية المجنّدة، وتحوُّل البلاد التونسية إلى ميدان للعمليات العسكرية الفرنسية، والأهم انعكاس كل ذلك على الوضع الاقتصادي والاجتماعي للتونسيين. واعتبرت الدراسة في هذا السياق، تشكل نضج سياسي بعيد نهاية الحرب الكونية، انعكاسا حقيقيا لتصدع جبهة الاستعمار والاستبداد. وظهرت في هذا السياق مراهنات النخب السياسية المغاربية على الدعم العربي والدولي. وبالموازاة مع ذلك، أمكن قياس انخراط جامعة الدول العربية في دعم النزعات

التحررية بالمغارب، وكذا الدور الذي اتفق لمؤسسات مغاربية في الخارج، من قبيل مكتب المغرب العربي في برلين ودمشق، والقاهرة لاحقا. وعلى خلاف ما يرشح في كثير من الدراسات، اتسم العمل المغاربي على مستوى هذه الهيئات بكثير من الخلافات، تُعزى أساسا إلى الصراعات بين المغاربة والتونسيين، والتي أدت إلى إفراغ بعض المبادرات، من قبيل تهريب محمد بن عبد الكريم الخطابي، من مضمونها الوحدوي. ولا يقلُّ عن ذلك خطورة خيبة أمل المغاربيين في عمل الجامعة العربية، سيما بعد أن صرفت كل جهودها للقضية الفلسطينية، وأهملتْ انشغالات المغارب وتطلعاتها.

لم يكن مسار تحرر بلدان المغارب وانعتاقها ليعزِّز في التحصيل ممكنات الوحدة المغاربية، كما درجنا على مراجعته في العديد من الدراسات، ضمن مقولة النضال المغاربي المشترك. فقد بيّن محمد البدوي من خلال شواهد متعددة كيف استحالت الثورة الجزائرية التي انطلقت في الفاتح من نونبر 1954 مادةً للصراع والمزايدة داخل البلاد التونسية وخارجها. ففي الوقت الذي كان فيه النضال الوحدوي شعبيا على مستوى الحدود القطرية، فإن النخب الوطنية القطرية ارتضتْ التفاوض مع المستعمر بصورة مستقلة دون تنسيق. وتعمّق الخلاف بين الحكومات المغاربية إثر انحياز كل واحدة منها لأحد التيارين الإيديولوجيين المهيمنين غداة الحرب الباردة، وظهور مشاكل حدودية موروثة عن الحقبة الاستعمارية.

نزهة بزالي

جامعة القاضي عياض، مراكش